

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسنة

الفرقان

في تفسير القرآن

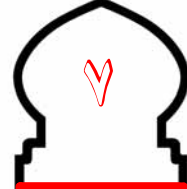
بالقرآن والسنة

الجزء الحادي عشر

تتمة سورة الأعراف

سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي



تتمة

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٣٤)
يَبْتِئَ آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا
عَنَّا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى
عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ حَتَّىٰ إِذَا
جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا آيِنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا
ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَيَّ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ
قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ
أُخْرَهَا حَتَّىٰ إِذَا آدَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَبُهُمْ لِأَوْلَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ
أَضَلُّونَا فَعَاتِبِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ
﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أَوْلَهُمْ لِأُخْرَبَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا
الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا
عَنَّا لَا فُتْحَ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ
الْحِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ
غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ
رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تَتَكَّبُوا الْجَنَّةَ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾
وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ
مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ
﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ :

هناك آجال شخصية بين محتومة ومعلقة، وهنا آجال جماعية، فهل هي كما هي آجال الأعمار بقسميها؟ ولا نجد أمة بكاملها تنقضي بموتٍ لأجل محتوم أو معلق على أية حال!

أم هي آجال في كيانها دون كونها كالأمم الرسالية الخمس حيث يُقضى على شرعة كلِّ بمجيء الأخرى، ثم الأمة الإسلامية أجلها القيامة الكبرى إذ لا أمة رسالية بعدها، وقد يتأيد أجل الكيان بآيات يونس: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمَلُ لِي لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴿١﴾ ﴿٢﴾ .

(١) سورة يونس، الآيات: ٤٧-٤٩ .

(٢) نور الثقلين ٢: ٢٧ فيه عدة روايات تشابه ما نقلناه عن الدر المنثور في تفسير الآية أنها تشمل آجال الأعمار، وفيه عن كتاب التوحيد بسند متصل عن ابن حيان التميمي عن أبيه: وكان علي عليه السلام يفنى الكتاب يوم صفين ومعاوية مستقبلة على فرس له يتأكل تحته تأكلًا وعلي عليه السلام على فرس رسول الله صلى الله عليه وآله المرتجز وييده حربة رسول الله صلى الله عليه وآله وهو متقلد سيفه ذا الفقار، فقال رجل من أصحابه: احترس يا أمير المؤمنين فإننا نخشى أن يغتالك هذا فقال علي عليه السلام: لئن قلت ذلك أنه غير مأمون على دينه وأنه لأشقى القاسطين وألعن الخارجين على الأئمة المهتدين، ولكن كفى بالأجل حارساً، ليس أحد من الناس إلا ومعه ملائكة حفظة يحفظونه من أن يتردى في بئر أو يقع عليه حائط أو يصيبه سوء فإذا حان أجله خلوا بينه =

ذلك، بعد ما يتأيد بما احتُفت به من آياتٍ تخاطب بني آدم ككلّ: ﴿يَبْنَیْ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ...﴾^(١) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ...﴾ ﴿يَبْنَیْ ءَادَمَ﴾ إذا فكلُّ الأمم الرسالية الخمس مؤجلة بأجل محتوم دون تعلق، حيث ينقضي دورها الرسالي بأمة رسالية أخرى تليها، ومجيء الأجل هنا هو مجيء قضاء، لا نفسه، حتى ينافي لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

وهنالک أجل ثالث هو أجل كلِّ الأمم عن بكرتهم كما في يونس ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(٢) و﴿كُلِّ أُمَّةٍ﴾ هنا تعني كلَّ الأمم، ولكنه احتمال بعيد عن ساحة الدلالة القرآنية.

ثم ومجيء الأجل في هذه الآجال لا يعني هنا واقعها إذ لا معنى - إذاً - لاستقدامها وقد قُضيت، بل هو مجيء تقدير الآجال فلا مؤخر لها إذا ولا مقدّم عما عجلت أم أجّلت لها من آجال، أم إنه واقع الأجل بفارق أنه في ﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ مستحيل ذاتياً، وفي يستأخرون وقوعياً، فقد عُني - إذاً - تلحيق ﴿يَسْتَأْخِرُونَ﴾ بـ ﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ في الإحالة مهما اختلفت فيها ذاتياً وسواها، حيث القصد هنا أصل الاستحالة لا وكيفيتها.

ذلك، وترى كيف ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ مهما هم ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾؟ ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ حيث يرون عندئذٍ ألا مجال لتأخير لأنه أجل محتوم، ثم ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ قد تعني - مع ما عنت - أن ليس لهم تقدم الأجل المحتوم مهما حاولوا، اللهم إلا المعلق ولكنه أيضاً غير بعيد عن مشيئة الله.

= وبين ما يصيبه وكذلك إذا حان أجلي انبعت أشقاها فخضب هذه من هذا - وأشار بيده إلى لحيته ورأسه - عهداً معهوداً ووعداً غير مكذوب.

أقول: فالمفروض على المكلفين التحرز عن بواعث الموت إلا فيما أمر الله بالجهاد، ثم ليس عليهم الحفاظ على أنفسهم أكثر من ذلك التحرز حيث الأجل ضمان رباني.

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

(٢) سورة النحل، الآية: ٦١.

وقد تعني «كل أمة» كل الأمم رسالية وسواها بكياناتها الجماعية قيادية روحية أو زمنية أمأهيه من كيانات جماعية .

أو تعني ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ - مع ما عنت - أجل الموت المحتوم قبل القيامة، والأمة - إذاً - هي أمة الموت، فإن لكلٍّ آناً أمواتاً بين كلِّ الأحياء، ف ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَفْتِدُونَ﴾ الأجل المحتوم لا فردياً ولا جماعياً^(١) وما علينا أن نتحرز عن الآجال المحتومة فإنه غير مستطاع لنا إذ نجعلها، وإنما لنا وعلينا التحرز عن أسباب الموت - غير المحبورة - حيث الأجل المحتوم مجهول بين الآجال المعلقة .

ففي مسارح القتال المفروضة علينا أو الراجعة لنا ليس التعرض للموت محظوراً، بل هو محبور قضية الأمر، وفي سائر المسارح هو محظور حيث نجعل محتوم الأجل عن معلقة^(٢) .

(١) الدر المنثور ٣: ٨١ عن أبي الدرداء قال تذاكرنا زيادة العمر عند رسول الله ﷺ فقلنا: من وصل رحمه أنسى في أجله؟ فقال: إنه ليس بزائد في عمره قال الله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَفْتِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] ولكن الرجل يكون له الذرية الصالحة فيدعون الله له من بعده فيبلغه ذلك فذلك الذي يلحقه دعاءهم في قبره فذلك زيادة العمر .
أقول: يعني ﷺ من زيادة العمر المنفية بصلة الرحم وما أشبه، الزيادة على الأجل المحتوم، وما أطفه زيادة حكمية وهو في قبره حتى يصله دعاء الصالحين من ذريته، فلا ينافي «ليس بزائد في عمره» دفع الآجال المعلقة بمبرات، فطالما الزيادة الواقعية في العمر مسلوقة فالزيادة الحكمية وكذلك دفع الآجال المعلقة، هما قائمان، فالمبرات مانعة عن التقص في الأعمار دون زيادة عليها وكما قال الله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١] .
فالمعني من النساء في العمر هو النساء عن الأجل المعلق لا المحتوم وكما في المصدر أخرج أحمد عن ثوبان عن النبي ﷺ قال: من سره النساء في الأجل والزيادة في الرزق فليصل رحمه .

وفيه أخرج الحكيم الترمذي عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: من ولي من أمر أمتي شيئاً فحسنت سريره رزق الهيبة من قلوبهم وإذا بسط يده لهم بالمعروف رزق المحبة منهم وإذا وفر عليهم أموالهم وفر الله عليه ماله وإذا أنصف الضعيف من القوي قوى الله سلطانه وإذا عدل مد في عمره .

(٢) راجع إلى حاشية (١) ص ١١٢ .